اللغـة العربية فى مدينة طليطلة

بعد الفتح النصراني ووثـائق المستعربين

من المعـروف ان اسم « المستعربين » يطلق عـادة فى دراسات التـاريخ على جماعات النصارى المحافظين على ديانتهم على طول العهد الاسلامى ، أى ، القرون التى عرفت أثناءها أرض شبه الجزيرة الايبيرية باسم « الأندلس » . ومن بين هذه الجماعات المتنوعة العناصر المتباينة التطور نجد جماعة مستعربى مدينة **طليطلة** وهى ذات مميزات خاصة منها الانفراد بمواصلة استعمال اللغة العربية كلغـة رسمية عند انشاء الوثائق القانونية بعد سقوط **طليطلـة** سنة ١٠٨٥ خلال مـدة تزيد على قرنين اثنين .

أما الغرض الأساسى من هذه المقـالة البسيطة فانما هو القـاء الضوء على أحوال العربية لدى هؤلاء المستعربين من جهة وعلى تبيين أسباب بقـاء العربية لغة متداولة عندهم على مستوى الكتابة من جهة ثانية .

تعتبر حـالة جماعة مستعربى **طليطلة** حالة فريدة فى اطـار الفتح النصرانى وتعمير ما جعله غير عـامر من أراضى شبه الجزيرة الايبيريـة ، ويرجع هذا الاعتبار الى أن هؤلاء المستعربين لم يدعوا استعمال العربية التى كانت بالنسبة اليهم وسيلة الثقـافة وأداء التعبير فى العهد الاسلامى ، وذلك فى سياق سياسى وحضـارى يختلف عن السيـاق الأندلسى والجو الاسلامى السابق اختلافـا جوهريا . والبرهان القاطع على حفاظهم المذكور على العربية هو وجود عدد كبير يقرب من ألف ومائتى وثيقة مخصصة لاغراض شتى منها عقود البيع والشراء ومنها الهبـات والقروض وعقود الايجار والنكـاح والوصايا وهلم جرا . وقد حقق ونشر معظم هذه الوثـائق المستشرق الاسبانى المشهور غونثالث بالنثيـا González Palencia فى مؤلف هام جدير بالذكر والاحترام (١) .

---

(١) Los mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII (Madrid, 1926-1930), أربعة مجلدات .

اننا سنعتمد فى هذه المقالة على هذا التحقيق المذكور ، ثم على الدراسة اللغوية المفصلة التى قصدنا فيها تحليـل خصائص اللغة العربيـة المنعكسة فى نصوص مستعربى **طليطلـة** (٢) لا سيما فيها المـلامح الراجع وقوعها الى تأثير العـامية الأندلسية فى كتابة الوثائق لأنها ، أى ، تلك العامية الاندلسية ، كانت اللغة الأم المتداولة لدى مستعربى **طليطلة** فى خلال القرن الثاني عشر م. على أقل تقدير .

فاذا تساءلنا عن سبب اختيار العربية لتحرير هذه الوثائق فى الفترة الأولى بعد الفتح النصرانى ، أى ، فى أواخر القرن الحادى عشر م. والنصف الاول من القرن التـالى ، فجميع ما عندنا من الشواهد يـدل على أن هذا الاختيار كان فى الحقيقـة اضطرارا ، نظرا الى أن اللهجـة الرومانسية المعروفة عـادة بـاسم mozárabe باللغة الاسبانية لم تكن وقتذاك الا لغة حديث يومى غير صالحة لأغراض الثقافة العليا ، أضف الى ذلك أن اللغة اللاتينية لم يتقنها غير الاقليـة النادرة جدا من رجال الدين المسيحيين المثقفين .

ولكن البيـئة الاجتماعية المحيطة بالمستعربين كانت ولا بد أن تؤثر تأثـيرا ملموسا فى أحوالهم اللغوية لأن البعـد عن دار الاسلام وعن مراكـز الحضارة العربية أدى بهم منذ أواسط القرن الثاني عشر م. الى زوال تملكهم من زمام اللغة العربية والى فقدان قدرتهم على استعمالها الصحيح .

على أن هناك عاملا آخر حـال دون تركهم للعربية ، نعنى بذلك ورود جموع جديدة من نصارى هاجروا من مدن جنوبى الأندلس نتيجة لما تعرضوا له هناك من ظروف صعبة تحت سلطة المرابطين المغاربة المتسلطين على أراضيها فى مثل تلك السنين (٣) . فعسى أن ساعد هؤلاء المستعربون الطارئون بثقافتهم العربية الاكثر رسوخا والاوسع نطاقا على ابقاء العربية أداة تعبيرية فى مدينة **طليطلة** .

وعند حلول القرن الثالث عشر م. وخاصة فى نصفه الثانى تغيرت أحوال تلك المدينة تغيرا جليـا ، فقد أصبحت اللهجة الرومانسية المعروفة بالقشتالية لغـة الحضارة النصرانية أثناء عهد الملك ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم فى ممالكه ، اذ كانت هى اللغـة التى صارت بديلة عن كـل من اللاتينية والعربية فى جميـع مجالات الحضارة سواء أكان ذلك فى ترجمة آثار التراث العلمى والادبى العربى أم فيما صدر من مراسم وأخبـار وتواريخ مشهورة ودواوين المملكة . وأمست

---

(٢) I. Ferrando, **El dialecto andalusí de la Marca Media: Los documentos mozárabes toledanos (XII y XIII)**, (Zaragoza, 1995).

(٣) انظر الى J. P. Molénat, L'arabe à Tolède du XIIème au XVème siècle, **Al-Qanṭara** (XV, 1994) 2, 473-496.

اللغة العربية مقتصرة على تحرير بعض العقود ، ومع أنها لم تخرج فى حقيقة الأمر عن كونها عربية ، فانها تحولت الى لغة مجمدة بعض الشىء لم تعد قادرة على تأدية معانى القانون والحضارة المستحدثة ، مما اضطر المؤلفون المستعربون الى اللجوء الى ألفاظ وعبارات وتراكيب رومانسية ضمن العقود المكتوبة بالعربية ، وفى آخر المطاف أصبحت العربية لديهم لغة ميتة لا رواج لها ، وقد حلت محلها القشتالية .

وهناك عامل اضافى آخر ذو أهمية كبرى حمل على ابقاء استعمال العربية فى الوثائق **الطليطلية** ، وهو أن اللغة العربية كانت لهم بمثابة شعار مشهور يميزهم دون سائر الجماعات النصرانية فى **طليطلة** ، لا سيما المهاجرون من شمالى شبه الجزيرة الايبيرية أو من جنوبى فرنسا ، الذين مع كونهم نصارى أيضا لم يتح لهم ما أتاحه الملك ألفونسو السادس للمستعربين من امتيازات ضرائبية شكرا على معاونتهم معه فى تيسير فتح **طليطلة** ودخولها . فأضفى ذلك على جماعة المستعربين صبغة خاصة ناتجة عن تميزهم بلغتهم العربية وبطقوس دينية مفارقة لشعائر جيرانهم بعض المفارقة ، وباحتفاظهم بقوانين موروثة عن أسلافهم القوط (٤) . فأصبحت هذه المميزات كلها علامة كيانهم لم يريدوا فقدانها ولو اضطروا الى الكفاح والدفاع عنها فى بعض الأحيان .

وبعد محاولتنا هذه لتحديد الدواعى المؤدية الى مواصلة الكتابة بالعربية بعد الفتح النصرانى ، يجب علينا أن نعرف بأوصاف اللغة المنعكسة فى الوثائق المذكورة ، وانما مقصدنا الآن هو أن نجيب على الأسئلة الآتية : هل نحن أمام لغة فصيحة أم عامية ؟ هل هى لغة خاصة بالمثقفين دون غيرهم أم لا ؟ وهل هى لغة مكتوبة فحسب أم لغة الحديث اليومى ؟ اذا أردنا اجابة على هذه الأسئلة المطروحة فمن المفروض علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن غرض الموثقين عند تحرير الوثائق والعقود انما هو دائما وبلا استثناء الارتقاء الى أعلى مستويات اللغة ، أى ، العربية الفصحى بما لها من قواعد واعراب . هذا أمر طبيعى معروف ، فقلما نجد نصوصا رسمية أو قانونية مكتوبة بلغة تبعد عن مقاييس الفصحى وأبنيتها . ومن المعروف أن الناطقين بالعربية قديما وحديثا يستهدفون فى الغالب وعلى الرغم من الازدواج اللغوى الى استعمال المستوى الأعلى ، أى ، الفصحى فى جميع مكتوباتهم مهما كان نوعها فى حين أنهم مستخدمون للعامية ، أى ، المستوى الأسفل لاغراض غير متعلقة بالثقافة العليا من معاملاتهم اليومية وحديثهم العادى .

---

(٤) هذا القانون هو المعروف عندهم باسم Fuero juzgo

ومن الأدلة التى تبين أن الأساس اللغوى فى تحرير الوثائق لا يختلف اختلافا مبدئيا عن اللغة الفصحى يعد وجود عدة ظواهر لسانية لا يمكن نسبتها الى النظام اللغوى العامى حسبنا أن نذكر منها بعضها كما يلى :

١ – التزام واع للاعراب فى أغلب الأحيان مع الحفاظ على حصيلته الوظيفية

٢ – ابقاء الالف المقصورة والالف الممدودة من علامات التأنيث .

٣ – وقوع المثـنى فى حالات غير منحصرة فى أعضـاء الجسم المزدوجة وأسماء الاعداد وأمثـالها فقط ، وتجاوز ذلك الى أسماء أخرى بل وفى الألفـاظ الـدخيلة .

٤ – أما مضارع الأفعال فما زالت ترد منه فى هذه الوثائق صيغها الثلاث من مرفـوع ومنصوب ومجزوم مـع أن النصوص محتوية على بعض الأخطـاء والاختلاط فيما بينها .

٥ – الاستمرار فى استعمال الأفعال المزيدة بالالف للدلالة على التعدية على خلاف المعتاد فى لغة أكثر المولدين .

٦ – تغلب على لغـة هذه الوثائق مطـابقة الاسماء والافعـال المعهودة فى الفصحى وتفضيلها على لغة «أكلونى البراغيث» .

ان هذه القائمة وان كانت غير كاملة ، تدل دلالة وافية على أن الخضوع لقواعد الفصحى ومقاييسها هو فى الواقع من أبرز مميزات لغة وثـائق المستعربين على خـلاف ما ادعـاه المشتسرق الفرنسى ج. ب. موليـنا J. P. Molénat (٥) ، القـائل بأن « المستوى اللغوى الوحيد المجسم فى وثائق المستعربين هو مستوى العامية» وبأن «عربية المستعربين المدونة لم تكن لغة رسمية على الاطلاق» . ونحن نرى عكس ذلك ، أى ، أن مثل هذه الوثائق لا يجوز تدوينها – بطبيعة الأمر – بغير لغة فصيحة شائعة ذات شهرة وشأن .

مع ذلك كله ، وبعد تصفية الشكوك الخاصة بالمستوى اللغوى الذى هو قوام الوثائق الطليطلية ، فان ثمة واقعا آخر لا ينكر ، وهو أن نيـة محرريها ، أى ، كتابة وثائق نموذجية من حيث اللغة لم تتحقق تماما ، اذ تتخللها أخطاء فى جميع أبواب اللغة من رسم وصرف ونحو ومعجم مما يطلعنا على كفـاءتهم المحدودة ، وما لقوا من مصاعب عند تصديهم لهذه المهمة .

---

(٥) فى البحث المذكور نفسه ص ٤٨١ – ٤٨٢ .

ويمكننا تقسيم هذه الأخطاء التى حرمتهم من درجة الاتقان لعملهم الى ثلاثة أصناف ، أولها التصحيحات وثانيها الظواهر العامية وثالثها التأثر باللهجات الرومانسية اما القشتالية واما اللغة المعروفة بالأعجمية ، أى ، رومانسية الأندلسيين .

– أما الصنف الأول وهو ما يسمى بالتصحيحات المزورة أو Pseudocorrecciones فانه منقسم الى نوعين مختلفين .

أ – أولهما التصحيح المائل الى المستوى الأسفل infracorrección وهو قريب من اللحن ، أى ، استعمال صيغ شبيهة بالصيغ العامية عوضا عما يقابلها بالفصحى لجهله أو نسيانه .

ب – وثانيهما التصحيح المائل الى المستوى الأعلى أو ultracorrección وهو قريب من التفصح ، أى ، اتخاذ صيغ فصيحة فى غير محلها وذلك تجنيبا للصيغ العامية الموافقة للفصحى على غير وعي بذلك من الناطق أو الكاتب ، نضرب مثلا استعمال «مفاعيل» للجمع بدلا من «مفاعل» فى مثل «المرافيق» أو «الاوامير» عوض «مرافق» و «أوامر» ، وذلك خوفا من الخطأ المعاكس الكثير الوقوع عند قولهم «المفاتح» مثلا بدلا من «المفاتيح» ، أو كقولهم «للبايعان» أو «الى البايعون» ، علما منهم بأن علامتى الرفع فى الجمع السالم والمثنى قد اختفت من كلامهم ، اذ استبدلت بهما علامتا النصب والجر فى جميع الحالات ، الامر الذى جعلهم يقولون «باع البايعين أو البايعين» .

– أما تأثر لغة الوثائق بالعامية ، فانما سبب ذلك أنها ، وليست الفصحى ، كانت لغة الأم لجماعة المستعربين الى أواخر القرن الثانى عشر م. على حسب تقديرنا . ومن عواقب هذا التأثر وقوع خصائص عديدة منتمية الى النظام اللغوى المخالف للنظام الفصيح . نقدم منها فيما يلى كشفا ملخصا خاصا بأبواب اللغة المختلفة :

١ – فى باب الأصوات ، تنعكس الامالة الأندلسية على درجتها الأولى ، أى ، حدوث صوت متوسط بين الألف والياء أو بين الفتح والكسر [e] فى كتابة الاسماء الرومانسية التى يقع فيها صوت [e] فى مقطع منبور تقابله ألف فى الرسم العربى مثلا «طراشة» Teresa ، «بلانسية» Valencia ، «اشتافن» Esteban .أما الدرجة الثانية من الامالة ، وهى حدوث الياء أو الكسر بدلا من الالف أو الفتح ، فليس عندنا ما يكفى من الشواهد والأدلة القاطعة ، اذ لم نجد الا كلمات رومانسية مكتوبة على ظهر بعض الوثائق يقابل فيها الحرف الرومانسى [i] ألفا عربية : Bisagra وهو باب الشقرة ، و Dirabengaz وهى دار ابن غاز ، و Gerindote

وهو جنان داود ، وهناك اختلاط كثير فى رسم الدال والذال مما تتتولد كلمات غريبة الرسم مثل «الذليل» ، و «حذود» ، و «عذاده» ، و «مدكور» ، و «الدى» ، و «دهبا» . وأخيرا نشير الى أن ايقاع العربية المتولد من الشعور بطول مقـاطع الكلام قد استبدل به فى حزمة اللهجات الاندلسية ايقاع معتمد على تناوب وقوع النبرة ، أى ، الضغط التنفسى عند التلفظ ببعض تلك المقاطع (٦) . فمن آثار هذا التغير الايقاعي تقصير المقـاطع غير المنبورة مثـل ما نلاحظ فى «المبتعون» ، و «المنادة» و «السنهجين» بـدلا من «المبتاعون» ، و «المنـاداة» و «السنهاجين» . وبالعكس يقع تطويل المقـاطع المنبورة مثـلا «يكتوب» ، و «أسفال» و «مسليم» عوض «يكتب» ، و «أسفل» و «مسلم» .

٢ – باب تصريف الأسماء والأفعال . مما يجدر ذكره فى هذا الباب استخدام وزن «فعال» اسما لصاحب الحرفة مثلا «براج» ، و «جمار» ، و «لبار» و «قواس» وربما استعملوا وزن «فعالى» ولعله راجع الى تأثير العربية الجنوبية البـائدة ، مثلا «قرمادي» ، و «حمامي» ، و «كتـاني» . وكذلك نجد المثنى التحليلى ، أى ، المركب من كلمة «زوج» ومن صيغة الجمع مثلا «زوج بيوت» و «زوج مرافق» بدلا من بيتـان» و «مرفقتان» . ومن نفس البـاب أن ضمير المتكلم المفرد من الفعـل المضارع يرد فى بعض الاحيان نونا مثلا «ناخد» وان كان جمعا فألحقت به الواو مثلا «نصطادوا» حسب القاعدة المطردة فى اللهجات المغربية . أما الافعال المزيدة فيلاحظ أن وزن «أفعل» قد انخفضت نسبة استعماله وقام مقامه وزن «فعل» مثلا «جوز» و «زول» عوض «أجاز» و «أزال» . أما الفعل المبنى للمجهول فربما تؤدى معناه أفعال مزيدة بالتاء أو النون ، فنجد مثلا «تكتب» و «انباع» بدلا من «كتب» و «بيع» مع ملاحظة أن الصيغة الفصيحة أكثر شيوعا وانتشارا .

٣ – بـاب التراكيب . ان الخصائص التى ينعكس فيها نظـام اللهجة فى التركيب هى ظهور ما يسمى «بتنوين الربط» «ـا» الذى يربط بين الاسم وصفته فى كل المواقف وليس فقط فى حالة النصب : «وفيها أرض ان بيضاء» ، «هى الآن غرس ان غرسه» . أما الاضافة فنجدها أحيانا على صيغتها التحليلية المركبة من حرف «متاع» والمضاف : «الارض متاع القصيل» ، «الجنينة متاع الدير» وهلم جرا . يستخدم كذلك حرف «ل» للتعبـير عن المفعول به : «غفر الله له» ، «ورأيـا لشنجه» (٧) .

---

(٦) وفقا على ما اقترحه فى كتابيه F. Corriente, **A grammatical Sketch of the Spanish Arabic dialect bundle** (Madrid, 1977), 3.1.1., F. Corriente, **Arabe andalusí y lenguas romances** (Madrid, 1992), 2.1.3.1.2.

(٧) شنجه اسم من اسماء النصارى .

ومن الجدير بالذكر وجود السابق الفعلى «ك» للتعبير عن المستقبل المحتمل أو المستحيل من جهة : «المـال الذى كيكون له فى المستقبل» ، «اتفق أن كياخذ» ومن جهة أخرى للدلالة على الحاضر أو العمل المستمر ، كما هو الحال فى بعض لهجات المغرب : «حيث كتدبح الكبـاش» . أما الضمير العـائد فى الجمل الموصوليـة ، فتحذف بكثرة : «الدارين التين ذكرنا» ، «الغرس الذى اغترس ولد البايع» . وفى الأخير نلاحظ أداة النفي «لس» الموجودة فى نصوص أندلسية أخرى .

– أما القسم الثالث من الصعوبات اللغوية فهو تـأثير اللغة الرومانسية التى قامت بدور الطبقة السفلى sustrato أولا والطبقـة المجـاورة adstrato ثانيا . أنه لابد من وجود آثـار لغوية ترجع الى هذه اللغة الرومانسية المتولدة المشتقة عن اللاتينية العامية وهى المعروفة لدى الباحثين الغربيين باسم اللهجة المستعربية التى كانت فيما سبق اللغة الأم للمستعربين قبل اتخاذهم العربية وسيلة للثقافة وآلة للتفاهم . وما زالت – على ما يبدو لنا – هذه اللغة تتداول فيما بعد لكنها عاشت ظروفا صعبة وانحطاطا جعلاها لغة مقتصرة على مرتبة الدونية تجاه العربية . ان آثار هاتين الطبقتين تكمن فى صيغ وظواهر تميل ميلا الى الاندماج فى النظام اللغوى العربى الاندلسى . بيد أن هنـاك طبقة لغوية أخرى وهى اللغـة القشتـالية التى أصبحت تسيطـر على سائر اللغـات فى المنطقـة انطلاقـا من القرن الثـالث عشر م. وهى التى قـامت بدور الطبقة العليـا superestrato وآثـارها ليست مندمجة فى القـواليب الاندلسية الا نـادرا . ومن التـأثيرات الموجودة فى الوثائق .

أ – على مستوى الأصوات اقتبـاس الفونيمين الرومـانسيين /p/ و /c/ الهامشيى الوظيفة ليس فى الكلمات الدخيلة الرومانسية الأصل فحسب ، بل فى كلمات عربية بحتة . والميل الشديد الى اسقاط التقابل الفونيمى بين الدال والذال ، واستعمال النبرة عوض الكمية كالاساس الايقاعى الرئيسى ، وامتداد التفخيم الى الأصوات المرفقة المجاورة للاصوات المفخمة بما فى ذلك من اعتبـار التفخيم فونيمـا فوق مستوى الوحدات suprasegmental . أو ، فى نفس الاطـار ، اسقاط التفخيم .

ب – على مستوى التصريف عدم تفريق الجنس النحوى فى مخاطب الفعل المضارع المفـرد أو الأمر من أمثال «وقـال لها : اخرج» ، «تريـد (للمؤنث)» ، واستعمال اسم المفعول بـدلا من اسم الفاعل فى الأفعـال اللازمة : «مبطولة» ، «مصلوحة» ، واستخدام بعض اللواحق الرومانسية الأصل فى كلمات عربيـة : «صخيرولة» وهى صخرة صغيرة والكـلمة العربية الحق بهـا لاحق التصغير الرومانسى /ol—/ ,/uel—/ ، أو فى كلمات غير عربية الاصل مندمجة فى العربية؛

«شدكون» أو شادكة كبيرة وذلك عن طريق لاحق التكبير الرومانسي /on—/ .

ج — من التأثيرات الأساسية على مستوى التركيب التردد فى اختيار الجنس النحوى لبعض الأسماء مثل «البير» التى ترد مذكرا فى بعض الاحيان : «بير مر» وذلك اعتمادا على كونه مذكرا فى الرومانسية ، أو «باب» و «كرم» الذان يأتيـان مؤنثين مرات ومذكرين مرات أخرى : «الباب الشارعة» ، «الكرم المذكورة» لأن الجنس الرومانسى لهتين الكلمتين هو المـؤنث . وكذلك نجد بعض الحروف على معانيها ووظائفها العـادية فى الرومانسية المختلفة عن المعاني العربية : «من» و «ل» وذلك نتيجـة عن ترجمة مبـاشرة غير جدية للتركيب الرومانسى . ومن الجدير بالذكر أن فعل «كـان» نجده فى مواقف لا يتوقع وجوده فيها فى العربية لكنه مفروض الاستعمال فى الاسبانية . أضف الى ذلك عددا لا بأس به من تراكيب تحاكي التراكيب الرومانسية دون العربية (٨) .

د — ان التأثير الرومانسى على مستوى المعجم يجب اعتباره تأثيرا مهما بدون شك ولا ريب مع ملاحظة أن تحديد أبعـاده المعينة ليس بعمل سهل ، على غرار ما قيم به مع المسردين الأندلسيين المشهورين لبيطره ذي ألكـالا وريمند مرتي اللذين لا تزيد فيهما نسبة الكلمات الرومانسية الاصل على خمس بالمائة (٩) لامعان النظر فى هذا الموضوع ينبغي قراءة مقالة من مقالاتنا (١٠) حيث تتوفر قائمة كاملة فيها الكلمات الرومانسية الاصل فى وثائق مستعربى **طليطلة** واضافة الى القـائمة توجد ملاحظات وتعليقات شتى فيمـا يخص أصل هذه الكلمـات وتأريخها ، وتقسيمها من حيث مجال دلالتها . والمجال الذى كثرت فيه الكلمات الرومانسية الدخيلة هو مجال المصطلحات الدينية . أما مجالات التقنية والمواد والملابس فهى على أنها مهمة لا تصل الى نفس الدرجة فى الأهمية . والمجال الأقل اقبالا للدخيل هو مجال الطبيعة وعلم الاحياء .

وبعد أن قدمنا الملامح العامة للغة الوثـائق **الطليطلية** ، نستطيع أن نحـاول تحديد المستوى اللغوي الموجود فيها تحديدا أدق . كما سبق ذكره . تشكل هذه الوثائق مجموعة مميزة الاسلوب بلغة تقرب من الفصحى ، لكن بوقوع عدد كبير من سمات عامية الموثقين ، وعدد لا بأس به من التصحيحات الراجعة الى انقطاع محرري الوثائق عن مصادر الحضارة العربية الاسلامية المعاصرة ، الى جانب

---

(٨) قد شرحنا البعض من هذه التراكيب المقلدة فى كتابنا المذكور آنفا ، ص ١٠٠

(٩) انظر الى كتاب الاستاذ كورينطى السابق الذكر F. Corriente, **Arabe andalusí y lenguas romances**, 141-142.

(١٠) I. Ferrando, «Los romancismos de los documentos de Toledo», **Anaquel de Estudios Arabes** (VI, 1995), 71-86.

مقتبسات عديدة عن اللغات المجاورة لها . كل هذا يجعل من لغة الوثائق فى آخر المطاف لغة قريبة من النظام اللغوى الذى عرفه الباحث اليهودي ي . بلاو باسم «العربية الوسطى» (١١) مع ملاحظة أنه ليس عندنا مستوى لغوى محدد متجانس بل بالاحرى عدة ظواهر لسانية تتخلل نصوصا تهدف الى المستوى الفصيح .

وعلى صعيد آخر من المهم أن نواجـه الآن قضية أخرى من القضايـا المثيرة للكثير من الجدل لم نأخذها بعد بعين الاعتبار فى هذه المقالة وهى : أظلت العربية لدى مستعربي **طليطلة** أداة للتفاهم والتعامل اليوميين ؟ من الحجج التى يـدلى بها عادة على هذا البقاء نجد أولا كل الخصائص المنتمية الى النظام اللغوى العامى السابقة ذكرها ، وثانيا وجود بضع فقرات فى الوثائق تعيد حوارا أو مناقشات يومية حية سجلت بلغة تقرب من العامية ، والهدف من ذلك تدوين كلام النـاس كما جرى لاثبات صحة الوثيقة القـانونية المحتوية عليه . فهذا ما نلاحظه على سبيل المثال فى الوثيقة رقم ١٠٠١ الى تحررت عام ١١٩٧ حيث نشاهد مناقشة بين شخصين بخصوص رد مـال قرض . فى هذا الحوار نجد الكثير من ظواهر العامية الاندلسية مثل اسباق المتكلم من الفعـل المضارع بالنون : «ناخد» ، و «نبيعه» الى آخره . من الاكيد أن مثل هذا الحوار أستعملت فيه اللغة العامية وليس الفصحى (١٢) ، وهذا هو سبب تسجيله عن طريق عبـارات وكلمـات عامية . والحجة الثـالثة مضمرة فى جملة موجودة فى أسفل الوثـائق ابتداء من أواخر القرن الثانى عشر م. نصها : «فسر عليهم بلسان عجمى فهموه واعترفوا بفهمه» ونحن نعتقد أن المراد بهذه الجملة أن بعض الشهود لم يعودوا يفهمون العربية فهما كافيا وكانوا اذا فى حاجة الى ترجمة أو تفسير بلغة أعجمية . ويبين ذلك فيما نظنه أنه قبل هذا الوقت كان كل واحد من المستعربين فى مدينة **طليطلة** قادرا على فهم العربية والتكلم بها . وهناك حجة أخرى تؤكد بقاء العربية لغة حديث وهى ما ذهب اليه بعض الباحثين (١٣) من أن اللهجة المستعربية الرومانسية كانت على وشك الانقراض فى أيـام الفتح النصرانى فصارت العربية الوسيلة الوحيدة

---

(١١) انظر الى كتابه J. Blau, **Studies in Middle Arabic and its Judaeo-Arabic variety** (Jerusalén, 1988).

(١٢) ولا اللهجة المستعربية الرومانسية كما ادعاه الباحث الاسبانى غاليس وهو يرى أن لغة المناقشة المذكورة كانت المستعربية ، وذلك فى المقالة الآتية :

A. Galmés, «La lengua de los mozárabes de Toledo: un diálogo en la calle», **Simposio Toledo hispano-árabe** (Toledo, 1986), 135-151.

(١٣) من أمثـال D. J. Wasserstein, «The languaje situation in al-Andalus», **Studies in the muwaššaḥ and the kharja** (Oxford, 1991), 1-15 J. P. Molénat, فى المقالة المذكورة ، ص ٤٨٣

للتفاهم حينذاك نظرا الى أن اللاتينية لم تخرج عن كونها لغة الدين المجمدة من جهة وأن القشتالية لم تزدهر بعد من جهة أخرى .

وفى ختام هذه الكلمات البسيطة نقول على وجه التلخيص ان الاحوال اللغوية لدى مستعربى مدينة **طليطلة** فى القرنين الثـانى عشر والثـالث عشر م. تميزت بتعايش العربية والرومانسية . لكن العربية التى كانت ابـان القرن الثانى عشر اللغة السائدة المسيطرة على سائرها ، بدأت انطلاقـا من القرن الثالث عشر م. تفقد شهرتها ويندر استعمالها المتسع سابقا على جميع ميادين النشاط ويقل شأنها تجاه اللغة القشتالية الجديدة بالرغم من حسن بلاء المستعربين فى الدفـاع عن كيانهم وتقاليدهم ومنها استعمال العربية .

اكنـاثيو فيراندو